منهاج الذاتية الأدبية

للدكتور زكي مبـــارك

صديقي ...

كتبت إليّ تسأل عن المراد من « الذاتية الأدبية » وهي كلمة يكثر ورودها على سنان قلمي ، ثم تدعوني إلى رسم المنهاج ، إن كان لها منهاج

وأجيب بأن الذاتية الأدبية هي أن تكون أنت أنت فيما تكتب وفيما تقول ، بحيث يشعر من يقرأ لك ، أو يستمع إليك ، أنك تنقل عن قلبك وضميرك ، وأن لك خصائص ذاتية لا يزاحمك فيها سواك ، وأنك لو نشرت مقالاً بدون إمضاء لتمّ عليك الروح قبل أن يتم عليك الأسلوب ، فإن الأساليب قد تتشابه في كثير من الأحايين تشابهاً يسمح بإضافة آثار كاتب إلى كاتب ، أو شاعر إلى شاعر ، أو مؤلف إلى مؤلف ، عند طيّ الأسماء

أما التشابه في الأرواح فهو نادر الوجود ، ولعله لا يقع إلا عند ضعف الأرواح ، كما تتشابه الغرائز أو تتماثل عند صغار الطير والحيوان

ولتوضيح هذه النظرية أذكّرك بمعلقة امرئ القيس ومعلقة لبيد ، فمعلقة امرئ القيس يمكن أن تضاف إلى غيره من الشعراء ، ويمكن لأيّ شاعر أن ينظم مثلها بلا عناء ، أما معلقة لبيد فهي شعر لبيد ، ولن يحاكيه فيها شاعر ، ولو قضى العمر في رياضة النفس على الاقتداء

وبفهم هذه النظرية تتضح مشكلة عجز عن حلها من تحدثوا عن المنحول من الشعر الجاهلي ، لأنهم يبنون أحكامهم على الأساليب لا على الأرواح ؛ فرقّة الأسلوب هي عندهم خصيصة حضرية ، وجزالة الأسلوب خصيصة بدوية ، وعلى هذا يقاس ، كما صنع سعادة الدكتور طه بك حسين

الروح هو الأصل في تقدير القيم الأدبية ، وعن الروح يتفرع الأسلوب . ولو شئت لقلت إن لكل كاتب أساليب تختلف باختلاف مقامات الإنشاء ، كما تختلف نظرات العيون باختلاف مقامات الحديث ، وكما تختلف نبرات الأصوات لمثل تلك الأسباب ، ثم يبقى الروح الذي يدل على صاحبه في جميع الحالات بلا استثناء

فانظر أين أنت من هذه الحدود : أينمّ عليك روحك ؟ أينمّ عليك أسلوبك ؟ أتنمّ عليك التبعيّة الذليلة في الروح والأسلوب لأحد الكتّاب أو أحد الشعراء

أنظر أين أنت ، فأنا أحب أن أعرفك بالروح قبل أن أعرفك بالأسلوب ، وافهمْ جيداً أنه لا قيمة لأديب بلا روح ، روح أصيل تعرفه بسيماه ، ولو أقبل عليك ملثّماً مع ألوف من الأرواح

هل قرأت سورة يوسف ؟

في تلك السورة الكريمة آيةٌ صريحة في أن يعقوب وجد ريح يوسف قبل أن يصل القميص ، وأنه شُفي من عماه عند وصول القميص

فهل تفهم المراد من هذا الرمز الطريف ؟

هل تفهم كيف يدرك الأعمى أشياء بطريق لا سمع فيه ولا لمس ؟

هذا هو الروح الذي أحب أن تلتفت إليه في حياتك الأدبية ؛ الروح الذي يدل عليك من أول سطر ، أو من أول حرف ، قبل أن يرى القارئ اسمك في خاتمة مقالك ، فإن وصلت إلى هذا فأنت من أصحاب الذاتية

ولكن كيف تصل ؟

هنا يبدأ الحديث عن المنهاج :

يجب أولاً أن تحرر عقلك وقلبك وروحك من جميع الأوهام والأباطيل والأضاليل . ومعنى هذه الوصية أنه يجب أن تنظر في جميع الأشياء وجميع المعاني نظرة استقلالية منزهة عن الخضوع لنظرات من سبقوك ولو كانوا من أعاظم الرجال ، لأن الغرض هو أن تصبح روحك جارحة من الجوارح ، وهي لا تصير كذلك إلا إذا عودتها الفهم والإدراك بلا وسيط . وهل تكون الروح أقل قيمةً من الرِّجل ، يا بني آدم ، والرجل لا تمشي إلا إن عودناها المشي ؟

وإذا كان علم الصباحة لا يُعرف بالوصف ، وإنما يُعرَف

بالتدريب على مغالبة الماء فى أيام أو أسابيع ، فَعِلْمُ الروح لا يُدْرَك بالوصف ، وإنما يدرك بتدريب الروح على التذوُّق والتفهم فى أعوام أو أزمان

أراد سابحٌ عبور النيل ففرق ، وأراد سابحٌ عبور المانش فنجح ، مع أن السابحين توأمان . فكيف نجح هذا وغرق ذاك ؟

يرجع الفرق إلى اختلاف التمرين والتدريب . وما يقال فى القوة الجسمية يقال فى القوة الروحية . فعاودْ روحك بالتمرين والتدريب فى كل وقت ، واحفظها من الغفلة عن إدراك دقائق الفروق بين الأشياء والمعاني ، وعوِّدها التفكير فى جميع ما ترى عيناك ، وما تسمع أذناك ، وما يهجس به الخاطر فى اليقظة أو فى المنام ، فالنوم كلمة سوقية وليس له مع حياة الروح وجود

إن عملت بهذه الوصية عاماً أو عامين ظفرت حتماً بالحاسة الذوقية ، وهى مفتاح الظفر بالذاتية الأدبية ، فتوكلْ على الله وابدأ من هذا اليوم

ويجب ثانياً أن توطِّن النفس على الغُربة الأبدية ، ولو كنت فى دارك وبين أهلك ، فالمفكرون فى جميع العصور غرباء

لن يكون لك ظهير غير قلمك ، ولن يكون لك نصير غير روحك ، فاعرف أين تضع قدمك قبل أن تخاطر بنفسك فتصحب رجال القلم البليغ

إن صحبتنا متعبة ومضنية ومؤذية ، لأن طريقنا أشواك من تحتها أشواك ، وقد رحَّبنا بالظمأ والجوع ، وبما هو أفتك من الظمأ والجوع ، فى سبيل الذاتية الأدبية ، فانظر كيف تصنع إذا ضَعُفتَ عن السير فى بداية الطريق ، أو فى منتصف الطريق ، طريق الموت أو الخلود

أنا أرحمك فأنهاك عن الاحتراق بنار الأدب ، وليتنى وجدت من ينهانى قبل أن أحترق !

إن صريع الأمواج يجد من يمدّ له يد الإنقاذ والإغاثة ، أما صريع النيران فلا منقذ له ولا مغيث ، ونحن صرعى النيران لا الأمواج

إن اللصوص يتعاطفون فلا يشهد بعضهم على بعض ، ولا يكيد أحدهم لأخيه ، ولسنا لصوصاً حتى نعِدك وتعِدنا ، وإنما نحن أدباء يكتب أحدنا لزميله صحيفة الاتهام ، بلا تورع ولا استحياء

إرجع قبل أن تحترق ، أيها الخاطب لما يسمّونه الأدب الرفيع

ولو أننى أملك الرجوع لرجعت ، فارجع أنت قبل أن يصعب عليك الرجوع ، وقبل أن تصير الاستقالة فوق ما تطيق

كان شيخنا العظيم « عبد الحميد بن يحيى الكاتب » زوَّدنا بنصائح تحفظ كرامة رجال الأقلام ، فهل سمعنا وأطعنا ؟ هيهات ثم هيهات !

لا يخدعنَّك السراب الخدَّاع فتتوهم أن احتراف الأدب أنفع من الاتجار بالتراب ، ولا تُطِع المضلين من أدعياء الأدب إلا إن ارتضيت إطاعة الشياطين

لقد نصحتُك ونصحتك ثم نصحتك ، فإن رأيت أن هذا النصح لم يؤثِّر فى نفسك ، ولم يصدَّك عن عزمك ، فأقبلْ ثم أقبلْ على الاحتراق باللهب المقدس ، لهب الأدب ، فنحن وحدَنا الأحياء ، ونحن وحدَنا الخالدون ، ولأعدائنا الموت والفناء !

إنَّ كلمةً تُضَمُّ إلى كلمة فى ذكاء ولوذعية أشرف وأعظم وأنفع من كنوز تضاف إلى كنوز ؛ وإن جود الله بالفكر والروح على من يصطفيهم من عباده ، لهو أطيب الهبات ، وأكرم الأرزاق

أقسمَ الله بالقلم ، ولم يُقسم بالمال ، ونحن بالله مؤمنون !

هل رأيت الله تخلَّى عن أديب سليم القلب قوىّ الروح ؟

لقد خرج المتنبى هارباً من مصر فى ليلة عيد ، فكم ألوفاً من الدنانير أنفقت مصر فى تعليم أبنائها حكمة المتنبى ؟

وقد مات محمد عبده بعلة أورثه إياها عقوق معاصريه ، فكم ألوفاً من النفوس حاولت التشرف بأنها رأته قبل أن يموت ؟

وعانى مصطفى كامل الكاتب والخطيب أشتات التهم الأواثم ، ثم كان من خصومه وحاسديه ومبغضيه من اشترك فى صنع التمثال ومرَّتْ آلاف السنين ، والناس جميعاً يستوحشون من الليل ، فكان غناء المصريين : يا ليل ... يا ليل ! !

صديقى :

أترانى شرحت المراد من الذاتية الأدبية ، ثم رسمت لك المنهاج ؟

هذه ومضة من ومضات ، وسأرجع إلى إرشادك بالتفصيل ، حين أطمئن إلى أنك أحد الأوفياء بالعهود .

زكى مبارك